الفصل الثالث

نشأة النحو المقارن وتطوره عند اليهود في العصر الوسيط

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأة الدراسات المقارنة عند اليهود، ودوافعها.

المبحث الثاني: الدراسات اللغوية المقارنة قبل ابن قريش.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المقارنات عند المسلمين.

المطلب الثاني: المقارنات عند اليهود قبل ابن قريش.

المبحث الثالث: مكانة ابن قريش بين النحاة اليهود.

المبحث الأول

نشأة الدراسات المقارنة عند اليهود، ودوافعها

يُعَدُّ ميدان الدرس اللغوي المقارن من الميادين الوعرة المسلك، الصعبة الارتياد، لا يستطيع السير فيه إلا من قضي شطر من حياته في تعلم اللغات السامية شقيقات العربية، وهي العبرية والآرامية، والأكدية (البابلية والأشورية) والحبشية (الجعزية) والعربية الجنوبية (السبئية والمعينية)، وكذلك ما تفرع عن هذه اللغات من اللهجات السامية كالفينيقية والأوجاريتية والسريانية وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن إدراك العلاقات التاريخية بين هذه اللغات لم ينتظم على أساس منهجي واضح وفي إطار نظرية شاملة إلا بعد تصنيف اللغات الهند-أوربية بمنهج علمي واضح، وكان لهذا المنهج أثره المباشر على الباحثين في اللغات السامية (العربية)، فحاولوا التوصل بنفس المنهج لتصنيف اللغات السامية (العربية).

وقد صنف المحدثون اللغات السامية (العربية) عمومًا إلى شرقية وغربية، وقسَّمُوا السامية (العربية) الغربية إلى غربية شمالية وغربية جنوبية(1).

ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن الدراسات السابقة المقارنة لم ترتكز على جميع اللغات واللهجات السامية (العربية) الموضحة في التصنيف السالف الذكر بدرجة متساوية وذلك لأنَّ هذه اللغات واللهجات لم تكن متساوية البنيان أو متكافئة من الناحية القالبية – أي الهيكل اللغوي، ونجد أنَّ الدراسات الأساسية المقارنة للغات السامية هي العربية الفصحى - والحبشية والعبرية والسريانية والأشورية – إذ يمكن الدلالة أو البرهان على ذلك بنظرة

---

(1) انظر: حازم علي كمال الدين، معجم مفردات المشترك السامي في اللغة العربية، راجعه وقدم له: رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، ٢٠٠٨، ص ص ٧ – ١٥.

عاجلة نظرة إلى هذه اللغات فسنجد أنها تمثل إلى حد كبير معظم مناطق الشعوب السامية، ولذا هي تمثل الفروع الأساسية للساميات (Principal Brunches of Semitic languages).

فمن ذلك نرى مقدار المدى الذي يستطيع المنهج المقارن أن يصل إليه، فهو يستند إلى مبادئ لغوية يسيرة فحسب، ولا يستطيع أن ينتظر من العلوم المجاورة إلا معونة ضئيلة، إذ يجب علينا أن نحذر الخلط بين القرابة اللغوية كما نستخرجها من المنهج المقارن، والقرابة الجنسية والقرابة المدنية[1].

ثم إنَّ اللغة العبرية شأنها شأن أيَّةِ لغةٍ أخرى؛ انفصلت عن أصل كبير لها، ثم أخذت ألفاظها في الاستقلال عن هذا الأصل، وإن كانت تحتفظ بداخلها على ما يربطها بالأصل الذي انحدرت منه سواءً في الألفاظ أو الحروف أو المعاني أو حتى ترتيب الجملة[2].

لكن البحث اللغوي داخل أي لغة، لا يتم إلا إذا تعرضت تلك اللغة إلى عارض يجعل أهلها ينظرون فيها ويتأملونها لدفع هذا العارض، ومن ثم يخرجون بعدة قواعد تحكم سير هذه اللغة والتغيرات التي طرأتْ عليها، وعليه فقد ارتبطت اللغة بتقدُّمِ الأمم وتخلُّفِها؛ لأنَّها منطوق ألسنتهم، وعلى وفق عمق القواعد الموضوعة للُّغة أو سطحيتها يتبين لنا مدى تقدُّم هؤلاء الناس أو تَخلُّفهم، ومدى ما وصلت إليه الدراسات اللغوية عند أهل تلك اللغة[3].

من تلك المقدمة نستنتج أن الأسباب التي تُؤدِّي إلى البحث اللغوي داخل اللغات هي:

---

(١) انظر: ج.فندريس، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجان البيان العربي، ب ن، ص ٣٧٦.

(٢) انظر: بن بارون، ص ٣٥-٣٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٦- ٣٧.

١ – ما قد تتعرض له اللغة من هجوم أو انتقاد، أو مقارنة مع لغة أخرى يدفع للبحث فيها.

٢- ارتباط هذه اللغة بالأصل الذي انفصلت عنه، ومحاولة معرفة القرب والبعد بين هذا الأصل وتلك اللغة.

٣- استقرار الناطقين بهذه اللغة أو عدم استقرارهم، وما يتيحه هذا الاستقرار من النظر في اللغة والاهتمام بها والبحث فيها.

أما إذا حاولنا البحث عن الأسباب التي أدت إلى الدراسات المقارنة عند اليهود، فالمُلاحَظ أنَّ مِثْلَ هذه الدراسة قد بدأت في ظل الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس؛ إذ توفر لهم الاستقرار المطلوب الذي سمح لهم بالنظر في النحو العبري، فتأثَّرُوا وأثَّرُوا فيمن حولهم من عرب وعجم، وخرجت لنا دراسات نحوية مقارنة، تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم، وإن كانت مُتأثِّرة في مجملها بالمنهج العربي في الدراسة والمقارنة.

ويمكن إجمال الأسباب التي أدت إلى نشأة النحو المقارن عند اليهود، في ما يأتي:

١ – ترجمة العهد القديم إلى اللغة العربية، إذ أظهرت الترجمات العربية للعهد القديم وجود كثير من الألفاظ المتشابهة بين اللغات مما أدَّى إلى أنَّ العلماء اليهود يبحثون عن أسباب هذا التشابه.

٢- نشأة النحو العبري وتطوُّره في ضوء نشأة النحو العربي وتطوُّره، أدَّى إلى أنَّ المؤلفين اليهود يُقدِّمُون في مؤلفاتهم بعض الموازنات والمقارنات.

٣- محاولة إثبات قدسية اللغة العبرية وقدمها عن اللغة العربية، وخاصة أنَّ اللغة العربية قد انتشرت انتشارًا كبيرًا.

بدأت الدراسات المقارنة عند اليهود تظهر في إطار كتب نحو اللغة العبرية، فقد كتب سعديا جاوؤن – السالف الذكر (القرن الرابع الهجري)–

معجـم «الحـاوي»، ويحتـوي هـذا المعجـم كـلا مـن كلمـات العهـد القـديم وكلمات التلمود، إذ رَدَّ كُلَّ مادةٍ لغويةٍ إلى معانيها المشتركة لأصول جذورها؛ أي المعنى الأصل المشترك في جميع صيغ المادة وهو مظهر جلي من مظاهر الدرس اللغوي المقارن.

المبحث الثاني

الدراسات اللغوية المقارنة قبل ابن قريش

المطلب الأول

المقارنات عند المسلمين

لا شك أنَّ انتشار الإسلام والخوف من اللحن في اللغة العربية؛ نتيجة اتصال اللغة العربية بلغات الأمصار المفتوحة، وكذلك الخوف من وقوع اللحن في نصِّ القرآن الكريم هو الذي أدى إلى نشوء النحو العربي وتطوره. ويعود الخوف من وقوع اللحن في اللغة العربية- لغة القرآن الكريم- إلى أنَّها لغة معربة، وقد أدى هذا إلى الاهتمام بضبط نص القرآن الكريم وتنقيطه. ويعود الفضل في هذا العمل – في رأي معظم الباحثين، إلى أبي الأسود الدؤلي. ومنذ ذلك العصر – أي في القرن الأول الهجري – بدأت تزدهر الدراسات النحوية العربية[1].

لم يكن جميع القدامى من اللغويين العرب على جهل باللغات السامية، بل كان بعضهم يعرف العلاقة بين العربية وبين هذه اللغات، وإن لم تظهر هذه المعرفة عندهم في الدرس اللغوي بشكل جلي بحيث تنتج لنا مؤلفات تعنى بمقارنة العربية باللغات السامية، إلاّ أنَّنا نجد في كتب التراث ما يشير إلى معرفة العلماء العرب القدامى ما يؤكد معرفتهم بالقرابة بين العربية، وغيرها من اللهجات العربية (السامية) القديمة.

فقد عثر على نص في كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة ١٧٥هـ) يفهم منه معرفة الخليل القرابة بين العربية والكنعانية، فيقول:

---

(١) انظر: بن بارون، ص ٢٨ – ٢٩.

«وكنعان بن سام بن نوح إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية[1]».

وعرف أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤هـ) اللغة السريانية، وأداة التعريف فيها، وهي الفتحة الطويلة في أواخر كلماتها؛ قال أبو حاتم الرازي: «قال أبو عبيد القاسم بن سلام: للعرب في كلامها علامات، لا يشركهم فيها أحد من الأمم كعلامة إدخالهم الألف واللام في أول الاسم، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه، وهو بذلك يريد الإشارة إلى الرفع والنصب والخفض، كما أدخلوا «الطور» وحذفوا الألف التي في الآخر، فألزموه الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية: (طورا) على حال واحد، في الرفع والنصب والخفض، وكذلك (اليم)، هو بالسريانية: (يما) فأدخلت العرب فيه الألف واللام وصرفته في جميع الإعراب، على ما وصفت، كما ذكر ابن حزم الأندلسي (المتوفي سنة ٤٥٦هـ) في كتابة «الأحكام في أصول الأحكام» علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية، فقال: «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينًا، أن السريانية والعبرانية، والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس، كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة لغة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة لغة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتها»[2].

ويتضح لنا من قول ابن حزم عدة حقائق هي: أن اللغات العبرية والعربية والسريانية كانت في الأصل لغة واحدة، ثم تطورت إلى لهجات، وبمرور الزمن وتباعد الوطن تحولت إلى لغات قائمة بذاتها، لكل لغة مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها.

---

(١) انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، باب العين والكاف والنون، دار مكتبة الهلال، ب ن، ج١، ص ٢٠٥.

(٢) ابن حزم الأندلسي، الأحكام في أصول الإحكام، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٤م، (١/ ٣٤).

أن هذه اللغات بينها علاقة مشتركة ناجمة عن الأصل الواحد الذي تفرعت عنه هذه اللغات، وهو ما يعرف في البحث اللغوي الحديث باسم «اللغة السامية الأم» وهذه العلاقة المشتركة ناجمة عن التشابه في المفردات وبعض قواعد النحو والصرف.

يضاف إلى ذلك صعوبة نطق الفرنجة لحروف الحلق خاصة العين، والحاء، وإبدالهما بالهاء ولا تزال هذه الظاهرة موجودة حتى الآن، ويمكن ملاحظتها أكثر في نطق العبرية الحديثة عند اليهود الإشكناز الذين تأثروا في نطق هذه الحروف باللغات الأوربية الحديثة، على عكس اليهود السفارديم الذين يحافظون على نطق هذه الحروف كما هي.

ويقول الإمام السهيلي (المتوفى ٥٨١هـ) في العلاقة بين العربية والسريانية: «وكثيرًا ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي وما يقاربه في اللفظ»[١].

وذكر ابن الحاجب في الكافية قولاً بأنَّ اسم الفعل (آمين) أصله سرياني، معللاً ذلك بأن وزنه من الأوزان الأعجمية، وكذلك عرف أبو حيان الأندلسي (المتوفى ٧٤٥هـ) اللغة الحبشية وأدرك العلاقة بينها وبين العربية، وألف تأليفًا مستقلاً[٢].

ويشير الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) في فتاواه إلى وجود علاقات لغوية بين هذه اللغات قال: «والألفاظ العبرية تقارب العربية بعض المقاربة، كما تتقارب الأسماء في الاشتقاق الأكبر، وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمي أهل الكتاب، فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب، حتى صرت أفهم من كلامهم العبري بمجرد معرفة العربية»، فإدراك علماء العربية لأوجه

---

(١) أحمد بن علي القلقشندي، صبحي الأعشا في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي الطويل، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٨، (١:١٨٤).

(٢) انظر: حامد بن أحمد بن سعد الشنبري، قطوف من الدرس اللغوي السامي المقارن، الطبعة الأولى، مركز الدراسات الشرقية، ٢٠٠٧، ص١٩.

الشبه بين لغتهم وغيرها وارد ومعروف، وليس من العدل أن ينسب لغيرهم، بل إنَّ من علماء العربية من عرف بعض اللغات السامية وغيرها، فأبو حيان الأندلسي ألف في نحو الحبشية والتركية.

ولكن علماء العربية لم يسعوا إلى إجراء البحوث المقارنة بين العربية وغيرها، وربما كان ذلك لاعتقادهم أن لغتهم أسمى من أن تقارن بغيرها، وتقديسهم لها جعلهم يربَؤون بأنفسهم عن مقارنتها بلغات أخرى[1].

المطلب الثاني

المقارنات اللغوية عند اليهود

اعتنى اللغويون اليهود بالدراسات السامية المقارنة ووضعوا فيها المؤلفات، فقد وقفوا على التقارب بين العربية والعبرية والآرامية، واكتشفوا العلاقة بين تلك اللغات، وقد ساعدهم على ذلك إلمامهم بالعربية والآرامية[2].

ولأنَّ نشأة النحو العبري ارتبطت بنشأة النحو العربي وتطوره، فلم يقتصر تأثير النحاة العرب على اليهود في المنهج فحسب، بل إنهم احتاجوا إلى اللغة العربية لتفسير ما غمض عليهم من ألفاظ في العهد القديم، وكان ذلك بداية نشأة الدراسات المقارنة عند اليهود.

فعلماء اليهود الذين قاموا بتوضيح وبيان وشرح معنى النص التوراتي سواء كان ذلك بتوضيح معنى ألفاظه أو تأويله، تأثروا بمن يعيشون بينهم من العلماء المسلمين الذين اعتنوا بتفسير القرآن والحديث، واجتهدوا في ذلك، إذ قام اليهود بدراستهم الدينية عن طريق البحث في لغة العهد القديم

---

(١) انظر: محمد حسن إبراهيم أحمد، النحو العربي وأثره في نشوء النحو العبري وتطوره، المصدر السابق، ص٧٥.

(٢) انظر: حامد أحمد الشنبري، المصدر السابق، ص ٢٠.

وأسرارها، ونبغ منهم في هذا المجال عدد كبير من العلماء، حملوا عبء التفسير الديني للتوراة عن طريق شرح وتفسير الكلمات، ورَدِّها إلى أصلها، واستخراج ما فيها من تصاريف وإيضاح أبنيتها[1].

وقد بذل علماء اليهود قصارى جهدهم لإثراء اللغة العبرية، فقد وجدت منذ القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) دراسات لغوية، ومن علماء اللغة الأوائل في الأندلس كان اللغوي والشاعر «مناحم بن سروق» (٩٣٠م) وهو أحد علماء المدرسة اليهودية في قرطبة، عاش في كنف حسداي بن شفروط، وكتب كتابًا في النحو العبري أطلق عليه اسم «מחברת» (أي الكشكول)، وهو طبقًا لآراء المعارضين يُعدُّ من أوائل المؤلفات العلمية في مجال الدراسات اللغوية المقارنة. واستمر عمله في هذه المدرسة إلى أن دبَّ الخلاف بينه وبين حسداي مما أدَّى إلى إبعاده عنها؛ بل وسجنه، وإن كان مناحم قد حاول وهو في سجنه استعطاف حسداي ليفرج عنه، وكتب له في ذلك رسائل عديدة.

ويذكر أيضًا أنَّ مناحم بن سروق قد أوضح في مؤلفه مسألة الجذور في اللغة العبرية والآرامية، وأشار إلى وجود جذور مختلفة، منها: الأحادية والثنائية والثلاثية إلى الخماسية الأحرف، ومن معاصري «مناحم بن سروق» دوناش بن لبراط الذي كان يعمل أيضًا بالمدرسة اليهودية في قرطبة وله باع طويل في مجال الدراسات اللغوية وهو الذي ينسب إليه أنه أول من ميز بين الأفعال المتعدية والأفعال اللازمة في اللغة العبرية بصفة عامة، فضلاً أنه اهتم بالحروف الضعيفة وأفرد لها مكانًا خاصًا، وعالج أداة التعريف بالعبرية[2].

يضاف إلى ذلك أنني وجدتُ العديد من الدراسات اللغوية المقارنة التي قام بها لغويون متخصصون، ومعظمها تم في المغرب والأندلس على يد يهود

---

(١) انظر: عبد الرازق أحمد قنديل، الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٤، ص٢١٣.
(٢) انظر: عبد الرازق قنديل، شعراء العبرية في الأندلس، ص٩-١٠.

سجلوها باللغة العربية، وإن وجدت أعمال أخرى أقل قيمة لتلك التي قام بها أبو يوسف القرقساني (أوائل القرن العاشر)، وداود بن إبراهيم الفاسي (٩٨٠م) اللذان خاضا في مجال الدراسات المعجمية المقارنة للغة العبرية، وألف هذا الأخير المعجم الضخم «جامع الألفاظ» أو «الأجرون» وهو معجم كبير يقع في جزئين اهتم فيه الفاسي بالنواحي اللغوية المقارنة لألفاظ اللغات السامية خاصة العبرية والعربية والآرامية(١).

وكان أول من قام باستخدام اللغة العربية لإيضاح ذلك دوناش بن تميم الملقب بالشفلجي الإسرائيلي (ت٣٦٠هـ/ ٩٦٠م)(٢)، فقام دوناش بالشرح على سفر (يصيرا) أي سفر التكوين عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) ويُعَدُّ هذا الشرح من دعائم الشريعة الموسوية، كما كان لتميم شهرة كبيرة في حقل اللغة العبرية وعلم القواعد وله تعليق أيضًا على سفر استير، كما وجد لدوناش كتابات من المرجح كتابتها باللغة العربية لغة العصر، مثل كتاب في الطب والفلك والحساب وشرح كل سفر التكوين(٣).

وكان دوناش بن تميم القيرواني في شمال إفريقيا معاصرًا لسعديا جاؤون (٩٤٢م) وألف كتابًا (מעירב מלשון בברו עיב) أي خليط من اللغة العبرية والعربية وحاول دوناش أن يبرهن في مؤلفه هذا أن اللغة العبرية أقدم من اللغة العربية، ويدعي المؤلف الأسباني «سعديا بن دنان» الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي - اعتمادًا على مصادر مؤلفين مسلمين- بأن ابن تميم اعتنق الإسلام(٤).

---

(١) انظر: عبد الرازق قنديل، شعراء العبرية في الأندلس، ص ١٢.

(٢) قدم والده من العراق إلى أفريقية للعمل بالتجارة في عصر الأغالبة، وأنجب دوناش بالقيروان في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي.

(٣) انظر: عطا بو رية، المصدر السابق، ص٣٠٨-٣٠٩.

(٤) انظر: بن بارون، ص٣٠.

وهناك من علماء اليهود الذين ينتمون إلى فرقة القرائين والذين كانت لهم بصمات بارزة في هذا المضمار وإن كان بعض الباحثين يظنوا أنه ليس للقرائين جهد في البحوث اللغوية والواقع إن كان جماعة منهم من علماء النحو واللغة، ويعد النحوي أبو الفرج هارون المقدسي من أعلامهم وقد ألف كتابه «المشتمل» وهو من النحاة اليهود الذين اهتموا بالدراسات المقارنة، وكتابه يحتوي على ثمانية فصول، تناول في الفصول الستة الأولى قواعد اللغة العبرية، فقد عالج فيها نظرية الاشتقاق ونظرية الجملة مقارنًا ذلك باللغة العربية، أمَّا الفصل السابع فإنَّهُ يمثل عملاً معجميًّا اتبع فيه أسلوبًا جديدًا لم يألفه اللغويون اليهود قبله، وهذا الأسلوب هو الإتيان بالجذر ومقلوباته، مثل: «רקב ، בקר، קרב، ברק..الخ»، ومما لاشك فيه أن الدراسات اللغوية المقارنة في العصر الوسيط منذ الجاؤونيم ثم القيروان والأندلس قد تقدمت تقدمًا ملحوظًا، وذلك بفضل معايشة اليهود في المناخ العربي السياسي والفكري[1].

وكتب «يهود ابن داود حيوج» (١٠٠٠ م) رسالتين أحدهما عن الجذور المعتلة والأخرى عن الجذور المضعفة، وناقش فيهما قضايا الثنائية والثلاثية في أصول الكلمات العبرية – وتناول القواعد الصوتية والصرفية التي تحكم كلمات الأفعال وتصريفاتها وبخاصة ظاهرتي الإعلال والإبدال، إذ قارن الجذور والاشتقاقات العبرية باللغة العربية، مُتوسَّلاً بذلك إلى توضيح الكلمات العبرية في ترجمة وتفسير سعديا جاؤون للعهد القديم، واهتم أيضًا بمقارنة الأصوات في اللغتين، فساعدته المعرفة الواسعة باللغة العربية، والقوانين اللغوية الجديدة التي استنبطها لنحو اللغة العبرية، ويرى بعض الباحثين أن حيوج هو أبو النحو العبري الحديث[2].

---

(١) انظر: بن بارون، ص ٢١. وانظر: عبد الرازق قنديل، شعراء العبرية في الأندلس، ص ١٥.

(٢) انظر: محمد صالح الضالع، ص٩١.

ثم أتم أعماله فيما بعد يونا بن جناح، أبو مروان بن جناح القرطبي (١٠٥٠م) على رأس علماء العبرية في العصر الأندلسي (القرن الخامس الهجري)، وهاجم القوم الذين يحتقرون اللغة العبرية ودعا إلى احترامها وبذل الجهد في دراستها، كما فعل العرب مع العربية، وله مجلد «التنقيح»، ويحتوي هذا المجلد على جزئين كتاب القواعد «اللمع» وكتاب الجذور «الأصول» وهو معجم قدم فيه عونًا كبيرًا في فهم معاني الكلمات العبرية وظلالها، ويحتوي المعجم على الجذور العبرية مرتبة ترتيبًا أبجديًّا، ومشروحة من خلال عبرية العهد القديم وعبرية التلمود ومقارنتها بالساميات الأخرى، وهذان الكتابان يُعَدَّان من أفضل ما صنف في مجال النحو العبري التقليدي حتى الآن(١).

هذا علاوة على أن ابن جناح قد ألف خمسة كتب أخرى فقدت جميعها، ومن هذه الكتب المفقودة؛ كتابا بعنوان: «الموازنة»، والراجح أنه – كما يتضح من عنوانه – كان في مجال الدراسات المقارنة، ولو بقي هذا الكتاب لتطورت الدراسات اللغوية المقارنة عند اليهود تطورًا كبيرًا وذلك قياسًا على كتابه «اللمع»(٢).

واهتم ابن جناح كذلك بالحديث عن الحروف العبرية في كتابة العربية، وعندما لم يجد شاهدًا عبريًّا كان يستشهد ببعض الشواهد العربية، وقد نص هو على ذلك كثيرًا من نحو قوله: «ومما لم أجد علة شاهدًا مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي، لم أنكل من الاستشهاد بواضحه، ولم أتحرج عن الاستدلال بلائحه»، وكثيرًا ما كان ينقل عن كتب الصرف العربية فقرات كاملة(٣).

---

(١) انظر: بن بارون، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٣١.

(٣) انظر: محمد عبد الصمد زعيمه، ص٥١.

ذلك أنه ازداد التقدم في البحث اللغوي بعد مزيد من الإطلاع على الدرس اللغوي العربي نحويًّا وبلاغيًّا؛ فصنف يهودا بن بلعام (القرن الخامس الهجري) كتابًا في الأفعال المشتقة من الأسماء في الأدوات النحوية وهو أول من كتب من اليهود عن ظاهرة التجنيس (الجناس) في نصوص العهد القديم وهو ملمح يظهر مدى التأثير الذي أحدثته الدراسات اللغوية العربية في الدراسات اللغوية العبرية(1).

ومن ثم جاء ابن بارون (نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر) الذي كان قد اطلع على مؤلفات المدارس النحوية العربية المختلفة دون أن يفرق بينها، وقد ألف كتابه «الموازنة بين العبرانية والعربية» الذي تجلد في معرفته للغة العربية الفصحى ولهجاتها حيث تُظْهِر المصادر العربية والعبرية التي اعتمد عليها سعة إطلاعه في مجالي النحو والمعجم، وسنفصل ما جاء في كتابه في مبحث «مكانة ابن قريش بين النحاة اليهود»(2).

ويعد موسى بن عزرا (النصف الثاني من القرن الحادي عشر) من العلماء اليهود الذين أبلوا بلاء حسنا في الدرس اللغوي المقارن بكتبه الموازنة بين اللسانين العبري والعربي، فقد ألف عزرا كتابه «المحاضرة والمذاكرة» الذي كان يعتبر من علامات الأدب العبري الوسيط، الذي أنتجه يهود العالم الإسلامي باللغة العربية المدونة بالحرف العبري، وهو كتاب في الشعر والشعراء، والخطب والخطباء، والعلم والعلماء وفي الزهد والزهاد، وفي الفلسفة والحكمة وفي النحو والبلاغة. ويعد الكتاب مصدرًا أساسيًّا في الفكر العربي واليهودي ويشير دائمًا إلى فضل العرب والعربية على اليهود والعبرية، فهو يتحدث مثلاً عن فضل العرب في الشعر فيقول «كيف صار الشعر في ملة

---

(1) انظر: محمد صالح الضالع، ص91.

(2) انظر: ابن بارون، ص 24 – 25.

العرب طبعًا، وفي سائر الملل تطبعًا»[1].

وما كان ذلك كله ليتم إلا من خلال الموازنة بين النحو العبري والنحو العربي لاستخراج كل هذه الثروة اللفظية التي أثرت اللغة العبرية.

فزادت بذلك ثروة لغتهم في الطب والعلوم والفلسفة إضافة إلى الآداب وخاصة في ميدان الشعر، إذ اقتبس اليهود في هذه المرحلة بحور الشعر العربي وأساليبه، ونظموا على غرارها بالعبرية، وتختلف آثار هذه المرحلة من حيث خصائص اللغة وخصاصها تبعًا للمؤلفين أنفسهم، ومبلغ تمكنهم من لغتهم وإلمامهم بأدبها القديم؛ لأنَّ أغلبهم كان بعيدًا عن لغته الأصلية[2].

صارت الخطوات الأولى للشعر العبري في ثوبه الجديد في الأندلس جنبًا إلى جنب مع دراسة اللغة والنحو وكان النحويان المتقدمان في هذا الفن الجديد هما: دوناش بن لبراط (٣٠٨ هـ/ ٩٢٠م)، ومناحم بن سروق – كما سلف الذكر– فقد مهدا الطريق أمام الشعر العبري الوسيط، فدوناش بن لبراط هو مخترع طريقة تطبيق وزن الشعر العربي على الشعر العبري ويؤيدما ذكره يهودا ابن شيشيت إذ قال: «لقد خلق دوناش قاعدة جديدة لشعرنا العبري ولم يكن لهذا العمل مثيل لدينا من قبل»[3].

والذي أوحى لدوناش بن لبراط بفكرة تطبيق أوزان الشعر العربي، على الشعر العبري بالدراسات المقارنة خاصة بين اللغتين العربية والعبرية؛ فقام بأول محاولة قدم فيها أول شعر عبري على نظام ومقاييس الشعر العربي، فأدهش اليهود؛ لأنَّ ذلك لم يكن معروفًا في شعرهم في ذلك الوقت[4].

---

(١) انظر: موسى بن عزرا، المحاضرة والمذاكرة، نقله إلى الخط العربي: د. عبد الرازق قنديل، مركز الدراسات الشرقية، ٢٠٠١، ص٣، وإبراهيم موسى الهنداوي، الأثر العربي في الفكر اليهودي، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الشبكشي بالأزهر، القاهرة، ١٩٦٣، ص٨٦-٩٧.

(٢) انظر: محمد التونجي، ص٤٠.

(٣) انظر: عبد الوهاب المسيري، جزء (٥)، ص١١.

(٤) انظر: إبراهيم موسى الهنداوي، ص٨٣. وانظر: شعبان محمد سلام، التأثيرات العربية في البحور والأوزان العبرية، مركز الدراسات الشرقية، ٢٠٠٤، ص٢١-٢٢.

وقد عمل اليهود على تقليد العرب في النثر والنظم، والمستعرض لكتبهم يجد الأسلوب العربي غازيًّا والروح الأدبية مبثوثة في كل فصل، كما أن المستعرض يجد اعتراف نقادهم بأنهم اقتبسوا عن العرب؛ إذ كانوا يجرون مقارنات بين العبرية والعربية، ونجد عددًا من المؤلفات قارن أصحابها بين آجرومية العرب وآجرومية اليهود[1].

وبناء على ما سبق نجد أن الدراسات اللغوية المقارنة تتكئ على مبدأ التكاملية في دراسة اللغات المنتمية إلى جذور مشتركة، بحيث تستدعي عقد المقارنات بقصد الكشف عن الأصول والتفرعات اللسانية المشتركة وغير المشتركة، وبيان درجات التقارب والتباعد فيما بينها، ويشكل هذا إحدى الغايات الأساسية في الدراسات اللغوية عمومًا[2].

---

(١) انظر: محمد التونجي، المصدر السابق، ص٤٠.

(٢) انظر: عادل هامل حسين الجادر، اللغة السريانية قواعد وتطبيق، بغداد، ١٩٩١، ص٣.

المبحث الثالث

مكانة ابن قريش بين النحاة اليهود

يعد هذا العرض لنشأة الدراسات اللغوية المقارنة عرضًا من الأهمية بمكان تجَلَّى في الأثر الذي أحدثه ابن قريش في تاهرت، أواخر القرن (٣هـ - ١٠م) الذي رَكَّز في نشاطه على اللغة، بدراسة مقارنة بين اللغة الآرامية واللغة العبرية واللغة العربية، من خلال رسالة بعث بها إلى الجالية اليهودية في مدينة فاس-كما سلف الذكر-، يحثهم على قراءة الترجمة الآرامية للتوراة بالعبرية (الترجوم) عند دراستهم للنص العبري ويشرح في هذه الرسالة الروابط اللغوية المتينة التي تربط العبرية بكل من الآرامية والعربية حيث يقول: إنَّ أصل اللغتين العبرية والعربية واحد، وأشار إلى اختفاء اللغة البربرية لضعف تأثيرها على ثقافتهم عندما دخلت اللغة العربية، وبذلك أصبح يهودا بن قريش بارعًا في النحو والصرف، كما كان بارعًا أيضًا في الشعر حتى أصبح من الرواد، لدرجة أن دراسته أصبحت ذات أثر كبير على المدرسة القيروانية.

فتبنى اللغة العربية الأغلبية العظمى من اليهود بعده، نظرًا لتأثيرها على حياتهم الثقافية والتجارية في هذه الحقبة الزمنية[1].

ولا شك أنه تأثر في هذا باللغويين العرب الذين ابتكروا هذا المنهج، خاصة الخليل بن أحمد في كتابه (العين) وابن دريد في كتابه (جمهرة اللغة).

وإذا كان النحو العبري قد نشأ في القرن التاسع الميلادي وازدهر خلال القرن العاشر الميلادي، فإنه في هذا القرن وأوائل القرن الحادي عشر تبدأ مرحلة جديدة في دراسة النحو العبري والدراسات المقارنة، وكان رائد هذا التجديد، النحوي اليهودي يهوذ ابن داود حيوج المعروف أبي زكريا حيوج

(١) انظر: عطا بو رية، ص٣١٥-٣١٦.

(ت ١٠٠٠م) إذ وضع أسس المقارنة الصوتية للغات السامية وقد عرف علاقة القربى التي تربط الآرامية والعبرية[١].

ونجد الرابي شموئيل هناجيد (٩٩٣م - ١٠٥٦م) الذي كان معاصرًا لابن بارون وألَّف في الدراسات المقارنة، ذلك أنَّهُ أَلَفَ كتابًا بعنوان «الاستغناء» تأثر فيه بالنحو العربي إذ عَدَّ الأفعال الهائية اللام مثل: גלה، קנה،.. الخ، يائية اللام أصلاً قياسًا على اللغة العربية، وخالف بذلك حيوج وابن جناح، وعلاوة على ذلك فقد اعتقد أن العبرية تشبه العربية في أنَّ الفعل لا يتعدى لمفعولين فقط، بل لثلاثة مفاعيل كما في اللغة العربية، وقد نقده ابن بارون في هذا الرأي مشيرًا إلى أن الفعل لا يتعدَّى في العبرية إلا لمفعولين فقط[٢].

وهذه المحاولات من قبل شموئيل هناجيد تدخل في باب المقارنات، لكنها لم تأخذ عنده الطابع العلمي، أي ينقصها المنهج العلمي الذي سار عليه من سبقه ومن جاء بعده[٣].

وفي أعقاب هؤلاء الباحثين نصل إلى ابن بارون (نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر للميلاد) صاحب كتاب «الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية» فالكتاب ذو قيمة كبيرة في الدراسات المقارنة النحوية والمعجمية، وهو أول كتاب خصص كلية فقط للمقارنة بين اللغتين العبرية والعربية أي أن المقارنة لا تأتي فيه عرضًا كما كان يحدث من قبل، فضلاً عن أنه لم يقارن جانبًا وترك آخر، بل أنه قارن على المستويين النحوي، والمعجمي (التركيبي والدلالي)[٤].

---

(١) انظر: حامد الشنبري، قطوف من الدرس اللغوي السامي المقارن، ص٢١.

(٢) انظر: بن بارون، ص ٣٣.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٣.

(٤) المرجع نفسه: ص ٣٣.

وقد بدأ ابن بارون كتابه بقوله: إن الجزء الأول من هذا الكتاب إذا كان قد خَصَّصَ لمناقشة «رتبة التشارك» بين اللغتين من نواحي «النحو» و«اشتقاق الأفعال»، وما اتَّصلَ بهما، فإنَّ الجزء الثاني سوف يحوي معجمًا يجمع كل الجذور التي نطقها ومعناها يتفقان في كلتا اللغتين[1].

وذكر ابن بارون أن هناك ضروبًا متقاربة بين اللغتين تشمل: التشابه في الخط واللفظ والمعنى، والتشابه نتيجة لتعاور الحروف المتشابهة المخارج، والتشابه نتيجة لتعاور الحروف المتجاورة، والتشابه نتيجة التصحيف.

وقد أشار ابن بارون إلى بعض المعجمين العرب ومؤلفاتهم مثل: الجمهرة لابن دريد، والمجرد لكراع النمل، وأشار إلى بعض النحاة العرب مثل: المبرد، والزجاج، وابن الأنباري، وقد أعطى ابن بارون حكمًا عامًا على اللغتين وضم إليها السريانية – فقال: «نرى اليوم اللغة العبرانية والعربية والسريانية متقاربات في الاشتقاق والتصريف واللفظ لقرب خراج أهلها لقربهم من الإقليم.. فإني أذكر فيها ما وضع التوافق فيه خاصة».

وعليه فإنَّ ابن قريش يختلف عن النحاة اليهود المعاصرين له في أنهم ركزوا على نحو اللغة العبرية من أمثال: يهوذا بن أشير (النصف الأول من ق ١٠م)، وسعديا جاؤون (ق١٠م)، وابن حيوج (ق١١) وغيرهما، ويختلف كذلك عن الذين اهتموا بالمقارنات كابن بارون الذي ركز على المقارنات النحوية والمعجمية فقط بين العبرية والعربية -كما سبقت الإشارة – أمَّا صاحبنا فقد اعتنى بالمقارنات اللغوية بين أكبر ثلاث لغات سامية، من الناحية الصرفية، والنحوية والشرح والتفسير، كما يظهر جليًّا في هذه الرسالة.

ومن النحويين موسى بن نجدلا الذي ترجم عددًا من كتب ابن حيوج، وابن بارون؛ ورأينا هذا الأخير أنَّه حَقَّقَ العلاقة النحوية بين اللغة العربية

(١) انظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، المصدر السابق، ص٣٣٣-٣٣٦.

والعبرية في كتابه «الموازنة»، وهكذا استمرت الحركة والنشاط اللغوي في الدراسات النحوية، ولما كانت المؤلفات النحوية قد كتبت بالعربية، كانت الحاجة ماسة إلى التفكير في ترجمة هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى وخاصة العبرية، وبذلك ترجمت معظم كتب العربية إلى اللغة العبرية، ومن هنا نجد أن حركة بعث اللغة العبرية نشأت وتمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم، بل كان بعض علماء المسلمين يُعِيْنون اليهود على إنشاء نحو لغتهم، ولقد استعرض اليهود منذ زمن مبكر، فأخذوا لغة العرب واندرجوا في غمارها[1].

وفي العصر الحديث أصبح للدراسة المقارنة منهجها الخاص منذ اقترح السير «وليم جونز» W. Jones هذا المنهج قرب نهاية القرن الثامن عشر وطبقه من بعده علماء بارزون من أمثل «شليجل» Schlegal، و«راسك» Rask و«بوب» Bopp «وجريم» Grimm[2].

وقد طبقوا ذلك على اللغات الهند وأوربية، ثم اتسع نطاق المقارنة ليشمل اللغات السامية فيما بعد على يد كل من «نولدكه»، «وبرو كلمان»، و«برجشتراسر»، و «رأيت» ثم «موسكاني» الذي يعد أشهر من قام بذلك.

والواقع أن باحثًا يهوديًّا معاصرًا عاش في مصر هو العالم «مراد فرج» قد قام بخطوة عملاقة في مجال الدرس المعجمي المقارن بين العربية وأختها العبرية، عندما صنف معجمه العظيم «ملتقى اللغتين العبرية والعربية»، وهو معجم عظيم الفائدة وإن تخللته عنصرية بحكم عقيدة المؤلف الذي كان يهوديًّا يغار على لغة دينه، وينسب إليها الفضل أحيانًا عندما يناقش المواد

---

(١) انظر: أرنولد توماس وآخرين، فجر الإسلام، ترجمة: جرجيس فتح الله، الطبعة الأولى، ١٩٥٩، القاهرة، ص٥١٣.

(٢) انظر: حامد أحمد الشنبري، قطوف في الدرس اللغوي المقارن، ص ٢١.

اللغوية المشتركة[1]. ولقد ترك مراد فرج الكثير من المواد اللغوية المشتركة بين العربية والعبرية.

أما المستشرقون فلقد قاموا بتصنيف بعض المعاجم المقارنة بين اللغات السامية العربية والعبرية والسريانية والحبشية والأكدية (الأشورية) ومن أشهر هذه المعاجم قاموس المعجم الإنجليزي للعهد القديم للمستشرق جزينوس[2].

والحقيقة أنه بالنظر إلى الدراسات المقارنة قديمها وحديثها فإننا نجد أن اللغة العربية – لغة القرآن الكريم – هي اللغة الأساس التي تعتمد عليها أسس المنهج المقارن لكل اللغات.

❁❁❁❁❁

(١) يزعم «مراد فرج» أن العبرية أقدم من العربية بحجة أن الأولى لغة التوراة كما يزعم أن بعض الكلمات تحرفت في العربية وتصحفت وقلبت وأبدلت: ملتقى اللغتين ص١-٣. وهذه المزاعم وغيرها مما ذهب إليه لا يؤيدها علم اللغات السامية المقارن.

(٢) انظر: دراسات في علم اللغة المقارن، المصدر السابق، ص٦٨.